القصص

صور من هوميروس

٢١ - حروب طَرْوَادَة

١ — مصرع أخيل
٢ — انتحار پوليكسينا
٣ — سهام هرقل
٤ — مقتل پاريس
٥ — نهاية إيونونيه

للأستاذ دريني خشبه

انتهت الهدنة ، واندلعت نيران الحرب كرة ثانية ، والتحم الجمعان تؤجج العداوة بينهما ثارات وثارات ؛ ولم يُجدِ الطرواديين أن تنضم إليهم مليكة الأمازون تحارب بفصائلها فى صفوفهم وتشد بجموعها أزرهم ، فان أخيل هو هو لم ينقص ولم يزد . . . بل هو يزيد كل يوم ظمأ إلى دماء قاتلى صديقه وأحب الناس إليه ... بتروكلوس الشهيد ...

لقد انقض أخيل على مليكة الأمازون التى انقضت بدورها على جحافل الهيلانيين فأوقعت الروع فى نفوسهم ، وقذفت الرعب فى قلوبهم ... فلم يزل بها يصاولها ويطاولها حتى نهز منها نهزة أنفذ بها رمحه فى صدرها ، وعفر جبينها الملتهب بثرى المعمعة ، وجردها من سلاحها إذ هى جثة هامدة ، وانكفأ أتباعها وبهن من الحزن على صاحبة الأسر فيهن ... ماصرفهن عن طروادة والطرواديين

وإن أخيل ليصول فى الميدان ويجول ، وإنه ليرتفع بصره عفواً ، وعن غير قصد ، إلى البرج الشاهق من أبراج إليوم ، فوق البوابة الاسكائية ، إذا به يلمح قمراً مطلاً من شرفة البرج يرنو بعينى ظبى ، ويهبط بجيد رئم ، ويشرق بخدين ناضجين من خدود ربات الخدور ، يرسلان على الساحة كلها سناءً ورُواءً ...

من هى ؟ ...

من هذه العذراء البارعة التى تشرف هكذا على الساحة الحمراء فتطفىء جذوات الغل المتقدة بين أضلاع أخيل ، وتضع حداً لهذه الثورة التى ظلت إلى تلك اللحظة تعصف بنفسه الغضبى ، وتحز فى قلبه المحزون ؟ ...

أوّه ... ! ! إنها الأميرة الفتانة پوليكسينا ، صغرى بنات الملك الشيخ ... پريام البائس الباكى الحزين ...

لقد أرسلتها العناية لتشرف على الساحة الصاخبة ، ولتنظر إلى هذا البطل الخرافى الجبار الذى لم يعد بيت فى طروادة كلها إلا وفيه لسان يلهج بذكره ، ويتحدث عن شجاعته ، ويخوض فى جبروته .... ثم لم يعد بيت فى طروادة كذلك ، إلا وفيه عين مؤرقة تبكى على عزيزها الذى قتله هذا البطل ، أو الذى سيقتله ، أو الذى يخشى منه عليه أن يقتله ... كأنه أصبح سفير هيدز إلى إليوم ، أو وزير بلوتو العظيم ! !

وأبصر أخيل بها ... ويالها من نظرة أنبتت فى قلبه دوحة من الحب وارفة ، ذات ظلال وذات أفياء ...

وظل الرمح يهتز فى يده ... ولا يصيب أحداً ... وظل هو يسارق قمر البرج المطل نظرة فنظرة ، وظل مشدوهاً مسبوهاً ... لا يعرف لم شُبت هذه الحرب ، ولم يقتتل هذان الجمعان ؟ ! ...

وانثنى من الميدان ينظر فى هذا الغرام الجديد ...

ولم يجد بداً من العمل لاحلال السلم محل تلك الحرب التى طالت وتتابعت عليها السنون ، من غير أن يظفر الهيلانيون بالطرواديين ، أو الطرواديون بالهيلانيين ، ومن غير أن يفكر أحد فى هذه المجزرة الشائنة التى تفتدى كل يوم بقطوف الشباب من زهرات الأمتين على السواء

فيالله من حب نهد لسلم ، لولا قساوة فى القلوب زادتها الثارات عنفواناً ، ولولا شرف أمة بأسرها تعبث به امرأة ، ولولا الأحن التى ذهبت بأبناء الملوك الصيد !

واستطاع أخيل أن ينفذ رسله إلى پريام يستعتبه ، ثم استطاع الرسل أن يخاطبوا الملك فى پوليكسينا على أن تكون أحب أزواج أخيل وآثرهن إلى قلبه ، فوعدهم الملك ، بعد إذ لحظ من افتتان ابنته هى الأخرى بزعيم الميرميدون ، أن تتم مراسيم الزواج حين تضع الحرب أوزارها ، وحين تنكشف هذه الغمة القاسية عن طروادة ...

بيد أن الهوى البرح قد ألح على قلب أخيل ، والصبابة العاتية قد جمعت أفانين من السهاد فى عينيه ، وطيف پوليكسينا يراوحه ويغاديه ، ويملأ عليه أخيلته ، ويتهادى أمامه فى كل نظرة ينفرج عنها هدبه ، أو غمضة يتناعس بها جفناه ! فلم يطق إلى صبر من سبيل !

وأنفذ رسله كرة أخرى فاتفقوا مع الملك على إجراء مراسم الخطبة ، عسى أن تفل من غرب هذه الحرب القاسية ، أو تبزغ منها تباشير السلام المنشود !

وأعلنت هدنة ليوم أو بعض يوم ؛ وأقيم المهرجان الفخم فى صميم الحومة الرائعة ، وتقدم أخيل فصافح الملك ، وأعلنت الخطبة ، وانثنى الزعيم العظيم وقلبه يطفر من الفرح ، أن أصبحت له پوليكسينا ...

وما كاد البطل ينقلب إلى جنده ، حتى كانت ڤينوس توسوس إلى پاريس أن ينتهز الفرصة العزيزة النادرة ، ويريش سهماً من سهامه المسمومة إلى عقب أخيل التى لم تغمرها مياه ستيكس فيصميه ... فيرديه ! !

ووتر پاريس قوسه ، وأرسل السهم المسموم إلى عقب أخيل فنفذ فيه ، وأنفذ فيه قضاء ربات القضاء ... اللائى فرغن الساعة فقط من غزل خيط حياته ، وقطعته أتروپوس[1] الهائلة بمقصها الجبار الفظيع

وهكذا أنهى پاريس الخائن تلك الحياة الحافلة بقدرة سافلة من غدراته التى توشك أن تنتهى !

***

واستطير الميرميدون ! وانقض أوليسيز كالعاصفة ينافح عن جثمان صاحبه ، واستطاع أن يستنقذ القتيل العزيز من أيدى أعدائه الجبناء ؛ وكان أجاكس العظيم يعاونه فى دفع الجموع الحاشدة التى تكاثرت حول الجثة تطمع فى عدة ڤلكان ...

وانصرف الجيش الحزين يذرف دموعه على أخيل ! !

واجتمعوا حول الجثة المضمخة بالطيب وحنوط المسك يحرقونها !

ووقفت ذبتيس تلقى على ابنها نظرة الوداع ... وتذرف عليه عبرة الوداع ! !

وكانت ثيابها السود تبكى معها ...

وكانت السماء كلها تذرف شئونها على أخيل ...

وعرائس البحر ساهمات على شواطئ الهلسپنت الفائض بالدم !

وپليوس المحزون يضطرب فى الأعماق فيجعلها ضراما !

والأولمپ كله ، ما عدا عصابة ڤينوس يعزى بعضه بعضاً ! !

وليس أولئك جميعاً شيئاً إلى ما حدث من بعد ، قبيل أن تخمد النيران فوق أخيل ... فقد ضج المكان الصامت بصيحات مفاجئة ، نبهت ما سكن من هول هذا المحشر الرهيب ... وتلفت القوم ، فاذا أجاكس العظيم قد أصابه طائف من المس ، وإذا به يرغى ويزبد ، ويهول وينشج ، ثم يقذف من فمه صبيباً من الدم ، يتلوه شوب من العلق ، وينبطح على الأرض ثم يثب على قدميه ؛ ويروح ويغدو دون أن يلوى على شىء ... ثم يستل جرازه ويركزه فوق الأرض ، ويتكىء بصدره على سنانه ، فينفذ السنان من ظهر أجاكس ، ضحية جديدة لهذه الحرب التى لا تشبع ، وخيط حياة حافلة يمر وشيكا بين الشفرتين من مقص أتروپوس ! . . .

ويحك أجاكس ! وللآلهة ما وفيت لأخيل يا بطل الأبطال !

***

وذهل القوم لانتحار أجاكس ، ولم يفيقوا من ذهولهم إلا ليروا إلى مأساة ضعضعت ما أبقى عليه الحزن من ألبابهم ،

(١) أشرنا إلى ربات القضاء سالفا — وهن ثلاث — ١ — كلوتو وتنسج خيوط الحياة — ٢ — لاخيز وتبرمها حتى تحتمل عاديات الزمان — ٣ — وأتروپوس وتقطعها فتنتهى الحياة !

وأطاشت ما بقى من حلومهم ، وتركتهم سكارى وما هم بسكارى هذه پوليكسينا ! !

إنها تقبل من طروادة كأنما بها مس ....

وهى تطوى الساحة المزدحمة بالأشلاء ... المضرجة بالدماء ، بقدمين عاريتين ، لا يقيهما حذاء ... وإن الدم ليتفجر منهما ...

وهى تصرخ ... وتلطم خديها الشاحبين ، بكفيها الواهيتين

وهى تجفل كالظبية المراعة ، وتدور حول نفسها ... ثم تقف لحظة ... وتنطلق ....

وهى تفعل هذا حتى تكون أمام البركان الخافت ، المشتمل على رفات أخيل ...

وإنها لتقف تلقاء جامدة كأنها دمية . . . . ذاهلة كأنها تمثال . . . . . .

يا للهول ! !

لقد انطلقت الفتاة تخاضت النيران .... ودست رأسها فى جمرات الغضى تبحث عن حبيبها المرجو ..... عن أخيل ..... ! ! [1]

أخيل الجبار ... قاتل ليكاون وپوليدور ... وهكتور ! !

* * *

ويجزع الهيلانيون مما ألم بهم من مقتل أخيل ، وانتحار أجاكس حزناً عليه ، فينصرفون عن الحرب إلى استيحاء آلهتهم ؛ وينفرد كالخاس يرسل نظرة فى النجوم ، ويناجى سكان السماء ، ثم يقبل على القادة وقد فرغت قلوبهم من الصبر ، وتبلبلت أفكارهم من طول الانتظار . . . . فيقول : « سهام هرقل ! ! لابد من سهام هرقل ! ! لن يفتح عليكم طروادة إلا سهام هرقل ... ! ! »

سهام هرقل ؟ ؟ وما سهام هرقل هذه ؟ ؟ »

آه ! لعلها هذه السهام التى غمسها هرقل فى دم هيدرا [2] فتسمم به ، وادخرت من الموت ما يكفى لابادة الطرواديين جميعاً . . .

ولكن أين هى هذه السهام اليوم ! وأنى للهيلانيين أن يهتدوا اليها ؟ !

جلس القادة يفكرون . . .

وذهب العرافون يقلبون صحف الغيب . . . .

وطفق مشايخ الجند يفتشون فى زوايا أدمغتهم . . .

ثم اذكر أوليسيز ، بعد لأى ، أن هذه السهام المنشودة قد تُركت مع الجندى القديم فيلوكتيس [1] الذى غادره الجيش فوق جزيرة لمنوس ، فى طريقه إلى طروادة . . . فجرّ الحملة ... منذ عشر سنوات !

ولقد كان فيلوكتيس قد أصيب بجرح كبير فى قدمه جعل اصطحاب الحملة له من المحال ، لما كان يلقى أوانئذ من الآلام المبرحة ، وما كان يملأ به آذان الجند من الصراخ والأنين . . . فاضطر أوليسيز الى تركه فى جزيرة لمنوس ، حيث أوى الجندى المسكين الى كهف منعزل عكف فيه على جرحه يعالجه . . . دون جدوى !

واتفق القادة على أن يذهب أوليسيز ، مصطحباً معه پيروس ابن أخيل ؛ (أونيوپتلموس كما كانوا يسمونه أحياناً) الى جزيرة لمنوس ليريا هل الجندى الجريح ما زال يحيا هنالك ، وقد بحثا عنه فى أنحاء الجزيرة حتى عثرا به يئن فى كهفه ويتوجع ، ويشكو إلى غير سميع ، فعرضا عليه أن يصحبهما إلى طروادة فأبى . وجعله يشتد فى الأباء تذكره هذا اليوم الأغبر الذى آثروا فيه تركه فوق تلك الجزيرة القاحلة لا أنيس له ولا سمير ، ولا لسان يرفه عنه وحشة الألم ووحشة المنفى الذى لا يدله فيه ؛ وكبر عليه أن ينطلق مع هذا الجيش الذى جحده وغمطه حق الجهاد فى سبيل الوطن ، والذود عن شرف هيلاس واسمها المقدس . . .

وتركه أوليسيز لپيروس يأخذه بالحيلة والرفق . . . ولكن پيروس ما يستطيع قط أن يقنع فيلوكتيس . . . فيكاد يدعه برما متسخطا .. لولا أن يظهر طيف هرقل فجأة مرفرفاً فى العلو ثم يأمر فيلوكتيس ، بعد تهويمة هنا وتهويمة هناك ، أن

(١) اختلفت المصادر فى انتحار پوليكسينا ، فبعضها يرويه كما أثبتنا ، وبعضها يزعم أنها انتحرت على قبر أخيل — والبعض يروى أن پيروس ، ابن أخيل ، قد انتزعها من حضن أمها هكيوبا وجعل منها قربانا على قبر أبيه عقب فتح طروادة

(٢) نشرنا هذه الأسطورة فى الرسالة فى « مجازفات هرقل »

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذا الجزء من ذلك الفصل على دراسة سوفوكليس الخالدة Philoctetes ترجمة لويس كامبل طبعة اكسفورد

ينصاع لما يأمره أوليسيز به (١)

ولا يسع الجندى الكريم إلا أن ينطلق مع أوليسيز . . . فيركب الجميع فى السفينة إلى طروادة ، ويلقاهم العسكر المشتاق بالبشر ، ويهرع اليهم بالايناس !

أليس فى مهام هذا القادم الأعرج ... النصر كل النصر ؟ !

* * *

ونفخ فى صور الحرب ، واشتجرت الأسنة ، واستعر القتال ، وتبوأ فيلوكتيس مقعداً للرماية لا يبصره فيه أحد ؛ فى حين يبصر هو منه كل مافى الميدان ! وراش سهامه !

وتطايرت المنايا عن قوسه المرنان ! وسمت إلى الطرواديين مصارعهم تهدهدها سهام هرقل ، وتعهد لها يمين فيلوكتيس !

وصرق سهم منها إلى باريس ! ...

وكان يشرف على المعركة من أسوار إليوم ! ... فوقع يتشحط فى دمه ، ويغص بريقه ، ويصرخ من الألم الذى يسرى فى عروقه مع الدم ... والسم ! !

واجتمع حول باريس أبوه وذووه وعشيرته ... وهيلين ! ...

وطفق الجميع يبكون فى باريس إخوته ، والذكريات السود التى أقبلت من كل صوب ترف فوقه وترنق على حبينه ...

وأخذ الألم من باريس مأخذه ... وراح المسكين يصرخ ويتلوى ... غير آبه لما تغرقه به هيلين من قبلات دنسة ، ودموع مسمومة ، كانت الويل كل الويل على طروادة والطرواديين

وذكر ، وهو يتجرع غصص العذاب ، أن حبيبته الأولى وزهرة صباه ، ووردة حبه القديم ، أيونيه ، كانت قد ذكرت له أنها تعرف من خواص الأعشاب المختلفة ما يشفى أقله أشد أوجاع الجروح وأنكاها وصباً ... فأشار إلى بعض أهله ، وطلب إليه أن يذهب إلى سيف البحر عله يجد إيونيه ... فاذا لقيها فليخبرها بما انتهى إليه (حبيبها !) باريس ، والآلام التى تعذبه وتشقيه ، من جراء جرح هذا السهم المسموم ... ... بيد أن إيونيه التاعسة ... إيونيه المعذبة ... إيونيه التى أخلصت لباريس الحب حتى عبدته ... ذكرت ماكان من هجر هذا الحبيب وقلاه ؛ وذكرت دموعها التى ذرفتها مرة تحت قدميه ضارعة متوسلة ... وتلك القساوة التى كافأها هو بها لما أن خدعته فينوس ... وأوقعته فى أحبولة هيلين ... ... فرفضت أبية شماء أن تذهب اليه ... ؛ والآلهة وحدها تعلم مقدار ماكانت تكنه له برغم هذا الرفض من الحب النقى ... والصبابة الحزينة ... والهوى المتأجج المشبوب !!

وقضى باريس ! ! ...

وأعدت النيران الضخمة لتحريقه ، فما هو إلا أن أشعلت من حوله حتى شوهدت إيونيه المتبتلة تخرج من لجة الهلسپنت وتعدو ، كأن قد أصابها مس ، حتى تكون تلقاء النار... فتقف باهتة ... وتنهد طويلا ... وتقذف بجسمها الجميل المرمرى المشوق فى اللهب ... وتصرخ صرخة مشجية ... و ... وتنتهى قصة حبها الباكى ...

وتخط بيدها آخر سطر فى كتاب باريس ...

(البقية فى العدد المقبل) دريني خشبة

(١) هذه رواية سوفوكليس ويقول هوميروس إن هرقل زار فيلوكتيس فى المنام وألقى اليه هذا الأمر

! الدكتور محمد الرافعى !

مختص فى الأمراض الباطنية وأمراض الأطفال . ومساعد أستاذ أمراض الأطفال بجامعة ليون بفرنسا . ودبلوم فى البكترلوجيا . ودبلوم فى علم الصحة

العيادة

بطنطا بشارع المديرية قرب ميدان الساعة

أحدث آلات الأشعة ، وأحدث المكتشفات الطبية